الجهر بالحق (4)

الأخ نبيل شبيب

موجز ما سبق

يستهدف هذا البحث استخلاص بعض معالم واجب الجهر بالحق وتحديد مقاييس له لإحياء قضية أدائه في فكرنا وواقع عملنا الإسلاميّ .. وكان الفصل الأوّل بعنوان : (الجهر بالحق وقضية الحكم) ، فبيّن أهمية الجهر بالحق في فترة سواد الظلم بصورة خاصة لإقامة الحياة الإسلاميّة والحكم الإسلاميّ .. وكان الفصل الثاني بعنوان : (الجهر بالحق بين العلماء والعامّة) ، فبيّن أنّ واجب الجهر بالحق واجب كلّ مسلم بحسب علمه واستطاعته وموضعه ، وهو على العالم أوجب .. وكان الفصل الثالث بعنوان : لماذا لا نجهر بالحق دائما ؟ .. فتحدّثت الفقرة الأولى منه عن السبب الرئيسي الأوّل ، وهو الخوف ممّا لا ينبغي الخوف منه ، فأسقطت أعذار (الجهل) و(التقيّة) و(الضعف) وما يقال حول (حقّ الطاعة لولاة أمر حاليين) .. للتأكيد من بعد على أنّ السبب الحقيقي وراء هذه الأعذار هو (الخوف) ، وهو عذر مرفوض من الأصل فالله عزَّ وجلَّ أحق أن نخشاه

الفصل الثالث

لماذا لا نجهر بالحق دائما ؟

الفقرة الثانية

الخوف ممّا لا ينبغي الخوف منه ، والطمع فيما لا ينبغي الطمع فيه هما في مقدّمة أسباب قصورنا عن أداء واجب الجهر بالحق كما ينبغي ..

ويروى في نهج البلاغة عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنّه كان يقول : (وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل ، ولا ينقصان من رزق ، وأفضل من ذلك كلّه كلمة عدل عند إمام جائر)[69]

وهذه كلمة جامعة لذكر السببين معاً : الخوف من الموت والخوف من نقص الرزق .. وما كان الخليفة الراشـــد كرّم الله وجهه ليستمدّ أقواله إلاّ من القرآن والحديث .. ونحن نجد آيات الجهاد يدور معظمها حول محوري (النفس والمال) ..

والفتنة بالمال التي تحجز صاحبها عن أداء واجب الجهر بالحق حتى وإن تعيّن عليه دون سواه .. نوعان ، النـــوع الأوّل الانشغال بزينة الحياة الدنيا عن أداء هذا الواجب .. وعن سواه في غالب الأوضاع ، والثاني هو الغفلـــة عـــن حقيقة أن الرزّاق هو الله ، وبالتالي خوف انقطاع الرزق على يد فلان أو فلان من عبيد الله ..

ولا حاجة لذكر ما ورد من نهي عن الافتتان بالمال والمتاع في الحياة الدنيا ، فكلّ من يقرأ القرآن الكـــريم يطلـــع على الكثير من الآيات بهذا المعنى .. ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ** ... ﴾ [آل عمران : 14] و ﴿ **اعْلَمُـــوا أَنَّمَـــا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ... ﴾ [الحديد : 20] .

ويظهر النهي عن أن يشغل (المال) بأنواعه عن أداء واجب الدعوة عامة في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **قُـــلْ إِنْ كَـــانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْـــشَوْنَ كَـــسَادَهَا وَمَـــسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّـــهُ لا يَهْـــدِي الْقَـــوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾[70] .

بل وبيّن لنا القرآن الكريم أن (كتمان الحق) يعود في غالب الحالات إلى الطمع بـ (الثمن القليل) .. فيقول تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[71] .

ويقول عزَّ وجلّ :

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾[72] .

إنّ الارتباط الوثيق بين وجوب أداء الدعوة إلى الحق على العلماء أكثر من سواهم -بما استُحفظوا عليه- وبـــين الهي عن التقصير في ذلك خشيةً من الناس .. أو طمعاً في الثمن القليل ، وبين أهمية أداء الواجب على صـــعيد إقامـــة حكم الله في أرضه وخلقه بصورة خاصة .. هذا الارتباط ظاهر لمن يقرأ متدبّراً قول الله عزَّ وجلَّ مبيّناً حال اليهود مع كتابه .. ومعلّماً للمسلمين ألاّ يكون حالهم كحال يهود :

﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾[73] .

ولئن كانت الفتنة بالمال تؤدي إلى الطمع والانشغال عن أداء الواجب عامة ، وتمنع عن الجهر بالحق خشية على المال وطلباً له بصورة خاصة .. فإنّ هذه الفتنة لا تصل إلى مؤمن بأنّ الله تعالى هو الرزّاق حقّ الإيمان ..

وفي توجيه القرآن الكريم لمحمد ﷺ قوله تعالى : ﴿ **لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ...** ﴾ [88] في سورة الحجر ، فإذا عدنا إلى السياق القرآني وجدناه يدور حول الدعوة والجهر بها .. ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ** ﴾[74] .

وكذلك في السياق القرآني من سورة طه حول قول الله عزَّ وجلّ : .. ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ...** ﴾[75] .

كما يعلّمنا القرآن الكريم أن نربط الأجر على قول الحقّ والجهر بالدعوة .. بالله وحده ، وأن نقطع كلّ صلة (ترتبط بأجر) على الدعوة مع من ندعوهم إلى ما أمر به الله .. يعلّمنا القرآن الكريم وهو يبيّن لنا كيف كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. يقولون كما جاء على لسان نوح عليه السلام .. : ﴿ **وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ...** ﴾[76] .. وعلى لسان هود عليه السلام : ﴿ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ...** ﴾[77] وفي سورة الشعراء تتكرّر الآية الكريمة : ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [180،164،145،127،109] خمس مرات على لسان خمسة أنبياء تأكيداً على هذه القاعدة في التعامل بين الدعاة والقوم المدعوين .. ولو رجعنا لقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتبيّن لنا أنّ هذا يسري بصورة خاصة على (القوم من الحاكمين وملئهم) ..

وذاك ما سرى على محمد ﷺ فطبّقه في دعوة قريش إلى الهدى :

﴿ **... قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ...** ﴾[78]

﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ** ﴾[79]

ثم إنّ ردّ محمد عليه الصلاة والسلام على عروض قومه عليه موسّطين أبا طالب بينهم وبينه كما تروي كتب السيرة ليقطع كلّ شكّ باليقين :

(يا عمّ ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته)

وفي كل ما سبق منطلق أساسي للتعامل .. تعامل من أراد الجهر بالحق مع (المال في يديه) ومع من قد يــدعوهم إلى الهدى ولديهم ما لديهم من مغريات .. فلا المال بين يديه يفتنه عن دعوته ، ولا مغرياتهم بالتي تغويه فينحرف عن طريقه ..

ولا نبالغ في القول مقابل ذلك ، إنّ ما يناله الحكام عن طريق إغواء (عالم) أو إغواء (داعية) بمال أو منــصب أو جاه أو مكانة .. أخطر وأكبر ممّا يناله بمختلف أساليب البطش والترهيب والتخويف

والرسول ﷺ يقرّر قاعدة عامّة في الحديث الذي يرويه الإمام أحمد :

« ... **وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُتِنَ وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْبًا إِلاَّ ازْدَادَ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا** »

ولهذا نجد العالم العامل حماد بن سلمة يقول لرسول الوالي محمد بن سليمان وقد بعث إليه يطلبه : (اقلب كتابــه واكتب .. أما بعد .. إنّا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً فإن وقعت لك مسألة فَأْتِنا وسل ما بدا لك ، وإن أتيتني فلا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك وأنصح لنفسي والسلام .. (فلما جاءه الوالي جلس بين يديه ثم سأله : مــا لي إذا نظرت إليك امتلأت منك رعبا ؟ .. قال حماد : (حدثني ثابت البناني قال سمعت أنَساً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنّ العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كلّ شيء وإذا أراد به أن يكنــز الكنوز هاب من كل شــيء** »[80]

أيّ الصنفين نجد اليوم في حياة المسلمين ؟ .. لو أنّ الأمر اقتصر على إهلاك شخص لنفسه أن آتاه الله علماً فلــم ينتفع به ، وكان واحداً من البطانة .. لهان الأمر بعض الشيء فكلّ نفس تحاسَب على ما تفعل ، ولكنّ هؤلاء الذين يعلمون بقول رسول الله ﷺ :

« **مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ** »[81]

وهؤلاء الذين يعلمون قول رسول الله ﷺ : « .. **ثم يليكم عمال من بعدهم يقولون ما لا يعلمون ، ويعملون ما لا يعرفون ، فمن ناصحهم ووازرهم وشدّ على أعضادهم ، فأولئك قد هلكوا وأهلكوا** .. »[82] ..

هؤلاء الذين عرفوا -بحكم علمهم- ، هذه الأحاديث وسواها ، تنهاهم عن (معاضدة ومؤازرة ومناصحة) أمثال ما في بلادنا من حكام يقولون ما لا يعلمون ، ويعملون بما لا يؤمرون .. عرفوا هذه الأحاديث و لم يكتفوا بمخالفتها بل مضوا إلى تبرير ذلك في عيون عامة المسلمين وآذانهم بمختلف أنواع التبريرات .. حتى ليكاد يصدّق الشاب الداعية المسلم أقوالهم ، ويقع فيما وقعوا فيه ، ويربط مصير ما أؤتمن عليه من دعوة إلى الله -كما فعلوا- بالحاكم وبطانته

ولكنّ الشاب المسلم الذي علّمه إسلامه أن إذا سمع قول الله ورسوله لا يكون له الخيرة من أمره .. وتعلّم أن فهم الإسلام لم يكن في عهد من العهود حكراً على فرد ولا طبقة .. يسمع من هؤلاء تبريراتهم جميعاً فتتبخّر دفعة واحدة أمام حديث صحيح واحد لرسول الله صحيح واحد لرسول الله ﷺ يقول فيه :

« **ليأتينّ عليكم أمراء يقرّبون شرار الناس ويؤخرّون الصلاة عن مواقيتها ، فمن أدرك ذلك مــنكم .. فــلا يكوننّ عريفاً ، ولا شرطياً ، ولا جابياً ، ولا خازنا** »[83]

العلماء .. موضع ثقة المسلمين على مدى القرون الطوال ، من أمثال ابن تيمية والغزالي كانوا يفهمون الآيــات والأحاديث ويحدّدون (تعاملهم) مع الحكام وأصحاب المال بصورة غير التي تتحدّث عنها التبريرات ، وهي الــصورة التي ينبغي للشباب المسلم أن يضعوها نصب أعينهم كلّما امتدت يد الإغواء أو الإغراء أو الاحتواء إليهم ..

وهذا سعيد بن المسيّب يستميله خليفة أموي بمال فيقول : (لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان حــتى ألقــى الله فيحكم بيني وبينكم)[84]

وهذا سفيان الثوري يقول :

(ما أخاف من إهانتهم لي ، وإنّما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم)[85]

ويقول ردّاً على رسالة وصلته من الحاكم :

(اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وإلى كان اكتسبه مــن حــرام فسوف يصلى به ، ولا يبقى شيء مسّه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا)[86]

ولّما هاجم جيشٌ مسلم يقوده غازان جيشاً مسلماً آخر يقوده الناصر بن قلاوون وهزمه .. قرّب غازان لعدد من العلماء طعاماً فأكلوا إلاّ ابن تيمية امتنع وقال :

(كيف آكل من طعامكم وكلّه ممّا نهبتم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟)[87]

وللغزالي حجّة الإسلام حديث مفصّل حول (ما يحلّ من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم ..) في (إحياء علـــوم الدين) .. منه : (الداخل على السلطان متعرّض لأن يعصي الله تعالى إمّا بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإمّا باعتقاده فلا ينفكّ عن أحد هذه الأمور)

ثم يشرح كيف يكون الدخول إلى (دور مغصوبة) ، فهو حرام .. ويكون التواضع حيث لا ينبغي (بل من تواضع لغنيّ ليس بظالم لأجل غناه – لا لمعنى آخر يقتضي التواضع– نقص ثلثا دينه فكيف إذا تواضع للظالم ؟ فلا يبـــاح إلاّ مجرّد السلام) .. ثمّ يشرح الغزالي عدم جواز السكوت على ما يراه الداخل على السلطان الظالم من منكر عنده ، ولا أن يدعو له بالبقاء ولا أن يثني عليه .. ثمّ يقول لمن يتجاوز ذلك كله إلى الأخذ من أموال السلاطين متحـــدّثاً عـــن أوضاع عصره .. ولقد كانت بالمقارنة مع أوضاع عصرنا هذا بخير كبير :

(إنّ أموال السلاطين في عصرنا حرام كلّها أو أكثرها ، وكيف لا والحلال هو الصدقات والفـــيء والغنيمـــة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ؟ ..

فأمّا الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلاّ لمن طمعوا في استخدامهم والتكثّر بهم والاســـتعانة بهـــم علـــى أغراضهم والتجمّل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم .

فلو لم يذلّ الآخذ نفسه بالسؤال (أولاً) ، وبالتردّد في الخدمة (ثانياً) ، وبالثناء والدعاء (ثالثاً) ، وبالمساعدة لـــه على أغراضه (رابعاً) ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه (خامساً) ، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائـــه (سادساً) ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله (سابعاً) .. لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كـــان في فـــضل الشافعي رحمه الله مثلاً ؛ فإذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنّه حلال لإفضائه إلى هـــذه المعـــاني ، فكيف ما يعلم أنّه حرام ويشكّ فيه ؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبّه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قـــاس الملائكـــة بالحدّادين)

رحم الله الغزالي .. ورحم الله العلماء

–للبحث صلة–

الحواشي

(69) (نهج البلاغة) طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات في بيروت ، ص 90/89 .

(70) [التوبة : 24]

(71) [البقرة : 174]

(72) [آل عمران : 187]

(73) [المائدة : 44]

(74) [الحجر : 88-89]

(75) [طه : 130]

(76) [هود : 29]

(77) [هود : 51]

(78) [الأنعام : 90] ، [الشورى : 23]

(79) [الطور : 40] ، [القلم : 46]

(80)- القصة في المجلّد الثاني فصل (ما يحلّ من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم) من كتاب إحياء علوم الــدين للغزالي ، طبعة دار المعرفة في بيروت ص 145 ، والحديث المذكور في القصة ، معضل حسب تخريج أحاديث الكتاب للعراقي .

(81)- رواه مسلم عن ابن مسعود .

(82)- رواه الطبراني والبيهقي وخرّجه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة تحت رقم 458 .

(83)- رواه ابن حبّان ، وخرّجه الألباني في الصحيحة 360 .

(84)- عن كتاب (الإسلام بين العلماء والحكام) لعبد العزيز البدري ، طبعة 66م ، ص 133 . ولــسعيد بــن المسيب مواقف جليلة كشواهد على الموضوع ، يمكن الاطلاع عليها في كتيّب عنه من سلسلة (أعــلام المــسلمين) الصادرة عن دار القلم ، والكتيّب للدكتور وهبة الزحيلي .

(85) نفس المصدر السابق ، ص 121 .

(86) نفس المصدر ص 96 ، ولسفيان الثوري مواقف عديدة مماثلة ، انظر كتاباً باسمه للدكتور عبــد الحلــيم محمود ، عن دار البيان في الكويت ..

(87) نفس المصدر ص 78 .